الابتلاء قرين الإيمان

كتبه غريب الديار بتاريخ الجمعة ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٤٢

من سنن الله الثابتة الابتلاء, حتى يُعلم الصادق من الكاذب, فلو كان الإيمان مجرد دعوى, لكان كل الناس مؤمنين, ولكن الابتلاء من الله يمحصهم فيرفز الصادق من الكاذب :

﴿ الم۝أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُترَكوا أَن يَقولوا آمَنّا وَهُم لا يُفتَنونَ۝وَلَقَد فَتَنَّا الَّذينَ مِن قَبلِهِم فَلَيَعلَمَنَّ اللَّهُ الَّذينَ صَدَقوا وَلَيَعلَمَنَّ الكاذِبينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣]

إن سنة الابتلاء سنة ثابتة لا ينجو منها مؤمن, وحتى الأنبياء فهم أشد الناس بلاء, ومن أشدهم بلاء إبراهيم عليه السلام, كما سوف نعرف في هذه السطور إن شاء الله

- تعريف الابتلاء
- أنواع الابتلاء
  - الابتلاء بالخير
  - الابتلاء بالشر
- ابتلاء إبراهيم عليه السلام
  - مواجهة قومه وإعلان المفاصلة معهم
  - الغربة والهجرة
  - ذبح ولده الحليم
- كيف يواجه المؤمن البلاء
  - الاستعداد النفسي
  - تحويل البلاء إلى سبب في زيادة الإيمان والتسليم
  - الافتقار إلى الله والدعاء بالثبات
- أسئلة دائما تتكرر

تعريف الابتلاء

الابتلاء لغة يعني الاختبار والتمحيص, أي امتحان المُبتلَى ليرز ما فيه, فيقال محص الذهب بالنار أي أخرج ما فيه من الشوائب.

كذلك عند ابتلاء المرء تظهر حقيقته, فإذا كان مؤمنا صبر على البلاء وظهر أنه فعلا مؤمن حقا, وإن لم يصبر ظهر أن دعواه إنما كانت مجرد كلام على اللسان لا حقيقة في القلب, يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ۝وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١]

فالبلاء إذاً هو الكاشف لحقيقة الإيمان, وكلما كان الإيمان أقوى, كلما كان البلاء أشد, كما هي الحال مع الأنبياء .

أنواع الابتلاء

ما يهمنا هنا هو الابتلاء في الدين الكاشف لحقيقة إيمان المرء من عدمه, ونظرا لشمول الإسلام لكل مناحي الحياة, فإن الابتلاء يكون متنوع بتنوع الحياة نفسها, بمعنى أن الله قد يبلو الإنسان في أهله ليُعلم أيهم يقدم الإنسان, دينه, أو أهله.

وقد يتجاوز الإنسان الابتلاء في الأهل ولكنه يفشل أمام الابتلاء في النفس فيضن بها عن القتل سبيل الله مثلا.

وقد يتجاوز الابتلاء بالمصائب ولكنه يفشل عند الابتلاء بالنعم, فينسى ربه ويقسو قلبه, وهكذا فإن الابتلاء يتنوع بتنوع المراد منه, وبتنوع طرقه.

ولكن يمكننا أن نقسمه إلى قسمين بحسب البلاء الذي يبتلى به, إلى خير, وإلى شر, وإليك بيان ذلك

الابتلاء بالخير

الإبتلاء بالنعم من أشد أنواع الابتلاء, وذلك أن الإنسان غالبا يطغى عند النعم يقول ربنا عز وجل:

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ۝أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦-٧]

فيقسو قلب الإنسان والعياذ بالله, بسبب هذه النعم, هذا إن لم يكن مؤمنا صادق الإيمان.

أما المؤمن الفطن فهو يتعامل مع النعم بحذر شديد, خوفا من أن تكون استدراجا من الله, كما أنه يبادر إلى شكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعم وذلك بالتقرب إليه, وبهذا يحول الابتلاء إلى منحة من الله يتقرب بها إلى الله عز وجل

الابتلاء بالشر

النوع الثاني من الابتلاء هو الابتلاء بالشر, وهو أيضا لا يقل خطورة عن الأول فالإنسان فيه إما صادق يصبر ويكون الابتلاء سبب في التقرب إلى اللّه.

وإما يسخط وينقلب على عقبيه وهكذا يخسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله

ابتلاء إبراهيم عليه السلام

إذا نظرنا إلى حياة إبراهيم عليه السلام في الوحي، نجده صلى اللّه عليه وسلم في ابتلاء مستمر, لا يكاد يخرج من ابتلاء حتى يدخل في آخر, وإليك نماذج من ذلك

مواجهة قومه وإعلان المفاصلة معهم

لقد بدأ إبراهيم عليه السلام الدعوة بالابتلاء حيث ابتلاه اللّه بقومه حاله حال كل الأنبياء .

فمواجهة قومه بأنهم كفار ضالون, ليست بالتكليف السهل, بل هي أمر صعب جدا وتحتاج توفيقا من اللّه أولا ثم صبرا وجَلَدا وشجاعة

فالناس لن تتقبل من يسفه أحلامها ويضلل آباءها, ويطعن بتراثها, وسوف تحاربه بكل ما أوتيت من قوة, لذلك لن يجرؤ غير الصادق في إيمانه على مواجهة الناس.

إننا حين ننظر إلى خطاب إبراهيم عليه السلام لقومه, نجده صلى اللّه عليه وسلم غير مكترث لردة فعل قومه, يخاطبه من موقع عليٍ وهم الأسفلون, كما رأينا في صفات القلب السليم

أي أن إبراهيم تجاوز هذا الابتلاء بنجاح وقد نصره اللّه على قومه كما وعد حين قال:

﴿ وَلَقَد سَبَقَت كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا المُرسَلينَ۝إِنَّهُم لَهُمُ المَنصورونَ۝وَإِنَّ جُندَنا لَهُمُ الغالِبونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]

الغربة والهجرة

بعد تجاوز بلاء مواجهة قومه, كان إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم على موعد مع ابتلاء من نوع جديد، إن لم يكن أقسى من سابقه فهو لا يقل خطورة عنه

إنه الهجرة إلى أرض اللّه الواسعة وترك الوطن والأهل الذين عرفهم ورفعه اللّه عليهم.

فبعد أن نصره اللّه على قومه, وحماه بينهم, يخرج إبراهيم عن تلك الأرض مهاجرا في سبيل اللّه إلى أرض لا يعرف أهلها, ولا يعرفونه, فيقيموا له وزنا.

بل بالعكس سيكون هناك غريبا ضعيفا في أعين الناس.

إن منطق الباحث عن الراحة والدنيا، ليقول أن عليه أن يبقى حيث هو، فقد أعذر إلى الله في قومه، وهو الآن في عزة ومنعة منهم ولعل الله يهديهم، فهذا خير من المجازفة في الذهاب إلى أرض أخرى قد يكون أهلها أكثر عتوا من قومه.

أما منطق الباحث عن رضوان الله عز وجل فهو الهجرة في سبيل الله بحثا عن آفاق جديدة للدعوة، فقومه لن يؤمنوا فقد رأوا بدل الآية، آيات كثيرة، ومع ذلك لم يؤمنوا، فالبقاء معهم بالنسبة للدعوة لا قيمة له، ومن يدعوهم إنما ينقش على الماء فهم قوم قد طبع الله عليهم

فأي منطق اتبع إبراهيم عليه السلام، منطق الراحة والدعة، أم الهجرة والابتلاء؟.

إن إبراهيم عليه السلام قرر الهجرة عنهم وتحمل المشاق في سبيل الله ففاز في الابتلاء مجددا

ذبح ولده الحليم

تجاوز إبراهيم كل الابتلاءات السابقة، وهو وحيد من غير أولاد، والأولاد فتنة عظيمة فتن بها كثير من الناس.

كم من رجل أقعدوه عن الجهاد خوفا أن يصيروا أيتاما بعده؟

وكم من رجل دفعوه لأخذ المال الحرام ليطعمهم ويلبي رغباتهم؟

وكم من رجل منعوه التعلم بسبب الكد عليهم؟

إن فتنة الأولاد فتنة عظيمة حذر الله منها المؤمنين في قوله:

﴿ وَاعلَموا أَنَّما أَموالُكُم وَأَولادُكُم فِتنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجرٌ عَظيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨]

لذلك إبراهيم عليه السلام الذي جعله الله إماما للناس، يجب أن يكون قدوة للناس في التعامل مع فتنة الأولاد، وهذا ما حدث بالفعل

فلقد سأل ربه أن يرزقه الله غلاما حليما، فرزقه الله إياه.

هذا الولد لم يكن كأي ولد، فهو غلام حليم، وهو أول ولد يجده إبراهيم عليه السلام الأواه الحليم، لذلك يمكن أن نتخيل درجة حبه له.

فلما بلغ السعي، أي بلغ من العمر ما يجعله يسعى مع والده، وهي الفترة التي يكون فيها الوالد أشد تعلقا بولده يأتيه الأمر بأن يذبحه !!!

لا يمكن تصور بلاء أشد من أن يؤمر بأن يذبح ابنه البار الحليم المؤمن ...

أن يقذف نفسه في النار كما فعل أصحاب الأخدود أهون عليه ...

لذلك هذا الابتلاء كان أشد على إبراهيم من ولده ...

هنا بزر الإيمان، إيمان إبراهيم وإيمان ولده حيث لا مكابرة أو تلكؤ في أمر الله:

› فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنّي أَرى فِي المَنامِ أَنّي أَذبَحُكَ فَانظُر ماذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افعَل ما تُؤمَرُ سَتَجِدُني إِن شاءَ اللَّهُ مِنَ الصّابِرينَ ‹[الصافات: ١٠٢]

أرى في المنام أني أذبحك

افعل ما تؤمر

لا نقاش ولا مراجعة فقط أرى أني أذبحك ... افعل ما تؤمر

أي ولد هذا ؟!

إنه غلام حليم، بما في الكلمة من معنى يحترمه والده، الذي رباه على الإيمان بقناعة وليس تقليدا

فانظر ماذا ترى ...

يحمل هذا التصرف من إبراهيم منهجا في تربية الأطفال حيث يكون الخطاب لعقولهم باحترام، فيتربوا على الإيمان الصحيح، وليس التقليد الأجوف الذي تربى عليه أغلبنا.

لم يكن التسليم باللسان كافيا بل يجب أن يبدأ التطبيق، وهنا وفقط هنا، يتحقق الإسلام

› فَلَمّا أَسلَما وَتَلَّهُ لِلجَبينِ ‹[الصافات: ١٠٣]

إن الإسلام هو التنفيذ لأوامر الله، وليس مجرد كلام يقال، ولذلك استخدم ربنا " فلما " أي عندما أسلما وذلك بأن جعله أرضا على جبينه لينفذ أمر الذبح.

أي أن حقيقة الإسلام لا تتحقق إلا بتجاوز الإبتلاء فعلا، وتلك فائدة نحتاج أن نتذكرها دوما

كيف يواجه المؤمن البلاء

جواب السؤال كيف يواجه المؤمن البلاء هو أن يواجهه كما واجهه إبراهيم عليه السلام والانبياء معه, والمؤمنين بالصبر والاحتساب وإليك بعض ما يساعدك على ذلك

الاستعداد النفسي

أول أمر يجب فعله هو الاستعداد النفسي لمواجهة البلاء فهو واقع لا محالة, لوعد الله عز وجل:

﴿ وَلَنَبلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الخَوفِ وَالجوعِ وَنَقصٍ مِنَ الأَموالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصّابِرينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]

وقوله

﴿ لَتُبلَوُنَّ في أَموالِكُم وَأَنفُسِكُم وَلَتَسمَعُنَّ مِنَ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبلِكُم وَمِنَ الَّذينَ أَشرَكوا أَذًى كَثيرًا وَإِن تَصبِروا وَتَتَّقوا فَإِنَّ ذلِكَ مِن عَزمِ الأُمورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

لذلك على المؤمن أن يكون مرتقبا للابتلاء دوما, ويعلم أنه قد يكون بالخير وبالشر كما أخبر ربنا عز وجل

﴿ كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ وَنَبلوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً وَإِلَينا تُرجَعونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]

تحويل البلاء إلى سبب في زيادة الإيمان والتسليم

عندما يتحقق وعد الله بوقوع البلاء, فإن المؤمن يطمئن ويزداد إيمانه, فهو يرى وعد الله قد تحقق فعلا, وهذا ما حدث مع المؤمنين في غزوة الأحزاب حيث أخبر ربنا عن شدة البلاء الذي تعرضوا له في قوله:

﴿ إِذ جاءوكُم مِن فَوقِكُم وَمِن أَسفَلَ مِنكُم وَإِذ زاغَتِ الأَبصارُ وَبَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ وَتَظُنّونَ بِاللَّهِ الظُّنونا۝ هُنالِكَ ابتُلِيَ المُؤمِنونَ وَزُلزِلوا زِلزالًا شَديدًا۝وَإِذ يَقولُ المُنافِقونَ وَالَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسولُهُ إِلّا غُرورًا۝وَإِذ قالَت طائِفَةٌ مِنهُم يا أَهلَ يَثرِبَ لا مُقامَ لَكُم فَارجِعوا وَيَستَأذِنُ فَريقٌ مِنهُمُ النَّبِيَّ يَقولونَ إِنَّ بُيوتَنا عَورَةٌ وَما هِيَ بِعَورَةٍ إِن يُريدونَ إِلّا فِرارًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١٣]

ثم أخبرنا عن ردة فعل المؤمنين على هذا البلاء:

﴿ وَلَمّا رَأَى المُؤمِنونَ الأَحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسولُهُ وَما زادَهُم إِلّا إيمانًا وَتَسليمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]

كذلك المؤمن عليه أن ينظر في كل بلاء يواجهه وعدا لله قد تحقق فيزداد به إيمانا

الافتقار إلى الله والدعاء بالثبات

يعتقد كثير من الناس أنه من هدي الأنبياء الدعاء بكشف البلاء في الدين, أو الدعاؤ بالتخفيف منه, ولكن عند مراجعة الوحي نجد أن هديهم هو الدعاء بالنصر والثبات, وليس بكشف البلاء نفسه, يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيّونَ كَثيرٌ فَما وَهَنوا لِما أَصابَهُم في سَبيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفوا وَمَا استَكانوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصّابِرينَ۝وَما كانَ قَولَهُم إِلّا أَن قالوا رَبَّنَا اغفِر لَنا ذُنوبَنا وَإِسرافَنا في أَمرِنا وَثَبِّت أَقدامَنا وَانصُرنا عَلَى القَومِ الكافِرينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧]

ونجده صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:

عن قيس بن أبي حازم، قال: سمعت خبابا يقول:

«أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة، في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: إن من كان قبلكم، ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم، أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله».

زاد بيان: «والذئب على غنمه».

أخرجه الحميدي واللفظ له والبخاري وابن حبان

فتأمل معي كيف غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب خباب رضي الله عنه؟

إن الابتلاء سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل فلا إيمان بلا ابتلاء, لذلك الدعاء بزوال الابتلاء أو التخفيف فيه هو دعاء بزوال قرينه, أي الإيمان ولو لم يرد قائله زوال الإيمان كما هي الحال في الغالب.

حيث أن أغلب المبتلين يريدون التمسك بإيمانهم, ولكن من دون ابتلاء, وهذا مناقض لسنة الله عز وجل حيث جعل الابتلاء قرين الإيمان, كلما قوي الإيمان قوي الإبتلاء.

لذلك ما على المؤمن فعله هو الصبر المناف للسخط, فلا يتذمر من شدة الابتلاء, وإنما يصبر ويحتسب ويلجأ إلى الله سائلا الثبات حتى تتخطى المحنة.

أسئلة دائما تتكرر

ما هو الفرق بين الابتلاء والبلاء؟

الابتلاء هو الاختبار, والبلاء هو ما يختبر به, أي أن البلاء هو ما يبتلى به, مثل ابتلاء الله إبرهيم عليه السلام بذبح ولده, ذبح الولد هو البلاء المبين الذي ابتلي به إبراهيم

ما هو أجر الابتلاء؟

من صبر على البلاء حتى تجاوزه, أجره غير محدود يقول الله سبحانه وتعالى:

< إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرونَ أَجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ >[الزمر: ١٠]

لماذا يبتلينا الله؟

يبتلينا الله حتى يظهر للناس بما فيهم المُبتلَى نغسه الصادق ويظهر الكاذب, فلو لم يبتلينا الله كيف سنميز المؤمن فعلا من المنافق.

ما هو أصعب أنواع الابتلاء؟

الابتلاء كله صعب, ولكن أصعب ابتلاء تعرض له أحد, هو ابتلاء إبراهيم بذبح ولده والله أعلم

كيف يكون الابتلاء في النفس؟

الابتلاء في النفس هو ضرر يلحقها كالمرض سواء البدني أو النفسي, ويتجاوزه المرء بالصبر والرضا بقدر الله

كيف يكون الابتلاء في الدين؟

الابتلاء في الدين هو تعرض المرء لبلاء الهدف منه صده عن دبنه, سواء كان ذلك بإغراءه بالدنيا أو بالتعذيب.

متى ينتهي الابتلاء؟

ينتهي الابتلاء بزواله, فمثلا الذي كان يعذب على دينه ينتهي بلاؤه بتوقف التعذيب الذي كان يتعرض له, ولكن عند انتهاء ابتلاء معين, سوف يبدأ المؤمن في ابتلاء جديد, فما دام حيا ستظل الابتلاءات تصاحبه.